السنة الرابعة عشرة من النبوة

وفيها: اجتمعت قريش في دار الندوة يتشاورون في أمر رسول الله ﷺ خوفاً أن يلحق بالمدينة، فيقوى عليهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشاورت قريش بمكة ليلةً على قتل رسول الله ﷺ، فأطْلَعَ الله نبيَّهُ على ذلك، فبات علي عليه السلام على فراشه، وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً عليه السلام يحسبونه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأَوْه رد الله مكرهم وقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فاقتصُّوا أثره. وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠][1].

ذكر خروج رسول الله ﷺ إلى الغار:

قال الطبري في «التاريخ»: إن رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام في تلك الليلة لما خرج إلى الغار: إن أتاك ابن أبي قحافة فأخبره أني قد توجهت إلى غار ثور، فليلحق بي، وأرْسِلْ إليَّ بطعام، واستأجِرْ لي دليلاً يدلُّني على طريق المدينة، واشتر لي راحلة، ثم مضى وأعمى الله أبصار الذين كانوا يرصدونه حتى خرج[2].

وقال الواقدي: خرج رسول الله ﷺ في تلك الليلة وهم مجتمعون على بابه، فأخذ كفّاً من تراب وقال: شاهت الوجوه، ثم مر عليهم وهو يقرأ سورة يس حتى بلغ قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾[يس: ٩]، فلم يبصره أحد، ومر رجل عليهم فقال: ما يقعدكم ها هنا؟ قالوا: ننتظر محمداً، فقال: لقد خِبْتُم وخَسِرْتم، قد مرَّ عليكم وضرب بالتراب وجوهكم، وحثاه على رؤوسكم، قالوا: والله ما أبصرناه. وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم،

---

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/ ٨٩، و «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٣، و«أنساب الأشراف» ١/ ٣٠٠، و«دلائل النبوة» ٢/ ٤٦٩، و«المنتظم» ٣/ ٤٥.

(٢) «تاريخ الطبري» ٢/ ٣٧٢.

وعلي عليه السلام نائم في فراشه، فلما رأوه قالوا: والله لقد صَدَقَنا الرجلُ الذي حدَّثنا[١].

والذين كانوا ينتظرونه: أبو جهل، والحكم بن أبي العاص، وعُقبة بن أبي مُعَيط، والنَّضر بن الحارث، وأميَّة بن خلف، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو لهب، وطعيمة بن عدي، وأُبي بن خلف في آخرين[٢].

قال الطبري: ضربوا علي بن أبي طالب وحبسوه ساعة، وأطلقوه، قال: وكان أبو بكر قد أتى علياً رضي الله عنهما فسأله عن رسول الله ﷺ، فأخبره أنه لحق بغار ثور، فخرج أبو بكر رضي الله عنه مسرعاً حتى لحق النبي ﷺ في الطريق، فسمع رسول الله ﷺ جَرْسَ أبي بكر رضي الله عنه فحسبه من الكفار فأسرع المشي فانقطع قَبالُ نَعْلِه، ففلق إبهامَه حجرٌ فسال الدم، فخاف أبو بكر رضي الله عنه أن يشق عليه فرفع صوته، فعرفه رسول الله ﷺ حين أتاه، فانطلقا ورِجْلُ رسول الله ﷺ تستنُّ دماً حتى انتهيا إلى الغار مع الصبح فدخلاه[٣].

وقال ابن إسحاق: جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى بيت رسول الله ﷺ فصاح: يا نبي الله، يحسب أنه على الفراش، فقال له علي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قد انطلق نحو بئر ميمون، فأدْرِكْه. فانطلق حتى لحقه، وبات الكفار يرمون علياً رضي الله عنه بالحجارة وهو يتضوّرُ قد لف رأسه في الثوب إلى الفجر[٤].

قال الثعلبي: كان رسول الله ﷺ خلَّف عليًّا عليه السلام بمكة لقضاءِ ديونه وردِّ الودائع التي كانت عنده.

ذكر دخولهما إلى الغار:

قال أنس: لما كان ليلة الغار، قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أدخل قبلك، فإن كان ثمَّ حَيّةٌ أو شيءٌ كانت بي قبلك، قال: «ادخُل». فدخل وجعل أبو بكر رضي الله عنه يلتمس بيديه، فكلما رأى جُحْراً قال بثوبه فشقه، ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، قال: فبقي جحر واحد، فوضع عَقِبَهُ فيه، قال: ادخل يا رسول الله فدخل، فلما أصبح قال: «أينَ ثَوبُك يا أبا بكرٍ؟» فأخبره بالذي صنع، فرفع رسول الله

(١) انظر «السيرة» لابن هشام ٢/ ٩١ـ٩٢ ، و «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٤ـ١٩٥ ، و«المنتظم» ٣/ ٤٨ـ٤٩ .

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٥ ، و«المنتظم» ٣/ ٤٩ .

(٣) «تاريخ الطبري» ٢/ ٣٧٤ .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٦١) ضمن حديث طويل.

ﷺ يديه وقال: «اللَّهم اجعَلْ أبا بَكرٍ في دَرَجتي يومَ القِيامَةِ»، فأوحى الله إليه: إن الله قد استجاب لك[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: حدثنا عفَّان[٢]، حدثنا همَّام، حدثنا ثابت، عن أنس: أن أبا بكر رضي الله عنه حدثه: قال: قلت: يا رسول الله ـ ونحن في الغار ـ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». متفق عليه[٣].

قال ابن عباس: وأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾الآية [التوبة: ٤٠].

ومعنى الآية: أن الله هو المتولي لنصره حين كان أولياؤه قليلاً وأعداؤه كثيراً، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]؟ قلنا: لأن أبا بكر رضي الله عنه حزن إشفاقاً على رسول الله ﷺ، قال له: يا رسول الله، إني إن قُتِلْتُ فمثلي كثير، وإن قُتِلْتَ أنت هَلكَتِ الأمةُ. فكان حزنه على رسول الله ﷺ لا على نفسه[٤].

وقال ابن عباس: عاتب الله أهل الأرض بهذه الآية إلا أبا بكر[٥] رضي الله عنه. والهاء في قوله: ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾[٦] عائدة إلى أبي بكر رضي الله عنه.

لأن الإزعاج والخوف على رسول الله ﷺ إنما كان من أبي بكر رضي الله عنه وحده، فرد السكينة إليه ولو أرادهما، لقال: (عليهما) بخلاف الهاء في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[التوبة: ٤٠] حيث يرجع إلى رسول الله ﷺ، لأن التأييد بالملائكة لا يصلح إلا له وحده.

وذكر وهب بن منبه: أن رسول الله ﷺ إنما هاجر من بيت أبي بكر رضي الله عنه، أحاطت قريش بالبيت، فخرج من خَوْخَةٍ في ظهر الدار. والأول أصح.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١/ ٣٣، وابن الجوزي في «المنتظم» ٣/ ٥٣.

(٢) في النسخ: «عثمان»، والمثبت من أحمد.

(٣) أحمد في «مسنده»(١١)، والبخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

(٤) انظر «تفسير» البغوي ٢/ ٢٩٣.

(٥) أورده الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ٢/ ١٥٤ عن الحسن رضي الله عنه، والبغوي في «تفسيره» ٢/ ٢٩٣، وابن الجوزي في «زاد المسير» ٣/ ٤٣٩ عن الشعبي. وانظر «دلائل النبوة» للبيهقي ٢/ ٤٨٢.

(٦) كذا في النسختين، وفي زاد المسير ٣/ ٤٤٠: وفي هاء عليه ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنها ترجع إلى أبي بكر.

وقال الواقدي: جاءت قريش إلى باب الغار ـ وقد نسجت عليه العنكبوت، وأمر الله شجرة فنبتت في وجه الباب، وجاءت حمامتان فعششتا على الباب ـ ومعهم القائف فنظر إلى الأقدام وقال: هذا قدم ابن أبي قحافة، وهذا الآخر أعرفه إلا أنه قدم يشبه القدم الذي في المقام ـ يعني مقام إبراهيم عليه السلام ـ، فقالت قريش: ما وراء هذا شيء، فانْصَرَفوا.

وقال ابن سعد: جاءت قريش إلى باب الغار، فرأت العنكبوت قد نسجت عليه، فقال بعضهم لبعض: لو كان ها هنا أحد ما نسجت هذه العنكبوت. وقال بعضهم: هذه العنكبوت هنا قبل أن يولد محمد. وأقبل فتيان قريش من كل بطن قد شهروا سيوفهم، فرأوا الحمامتين فقالوا لأصحابهم: ليس هنا أحد. وسمعهم النبي ﷺ، فسمَّتَ عليهن، فانحدرت إلى حرم الله، وحرَّم الله صيدهن[1].

وقال ابن إسحاق: ضربت الملائكة وجوه الكفار، فعادوا.

وقال البلاذري: بعثت قريش قائفين يقصان الأثر، أحدهما: كُرْزُ بن علقمة الخزاعي، ومعهما أُبَيُّ بن خلف، فقال القائفان: إلى هنا انتهى الأثر. وقال أمية بن خلف: والله إني لأرى هذا النسج ها هنا قبل أن يخلق محمد، وبال حتى جرى بوله بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر رضي الله عنه، ونادت قريش: من جاء بمحمد وبابن أبي قحافة، فله مائتا بعير أو دِيَتهما[2].

وفي الغار يقول أبو بكر رضي الله عنه[3]: [من البسيط]

قال النبي ـ ولم أجزع ـ يُثَبِّتُني ... ونحن في سُدَف من ظُلمة الغارِ
لا تخش شيئاً فإنَّ الله ثالثُنا ... وقد تكفَّل لي منه بإظهارِ
وإنَّما كيد مَن تُخشى بَوادره ... كيد الشَّياطين قد كادت لكفارِ
والله مُهلكهم طُرًّا بما صنعوا ... وجاعلُ المنتهى منهم إلى النَّارِ

* * *

(١) «الطبقات الكبرى» ١/ ١٩٥ ، والتسميت: ذكر الله تعالى على الشيء.

(٢) «أنساب الأشراف» ١/ ٣٠٢.

(٣) أورد هذه الأبيات في قصيدة مطولة الفاكهي في «أخبار مكة» ٤/ ٨٤ ، وابن عساكر ٣٠/ ٨٦ من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق.